تجلّيات المقاومة في الشّعر الجزائريّ الحديث 1919م- 1962م
" قراءة استرجاعية "

د. مصطفى بوطرفاية
جامعة ابن خلدون
- تيارت-

يعدّ الشّعر بإفرازاته الجمالية والفنيّة المختلفة أبرز جنس أدبيّ عرفه العرب منذ القدم، فتحيّزوا له مقارنة بالأشكال التّعبيرية الأخرى إلى حدّ الولوع به، وجعلوه ديوانهم، إذ سجّل مراحل حركية حياتهم، فكان بحقّ وثيقة شعورية وأدبية وحضارية حفظ بها ديمومة الأمّة، وغنّى أيّام مجدها وتألّقها، وبكى زمان تعاستها وانكسارها. وإذا كان الشّعر بهذا المعنى العميق، فلا جرم أن نعرّج على الظّروف الّتي نشأ فيها والمفارقات الّتي ترعرع فيها قصد تبيان لسان حاله في تلك الحقبة الزّمنية، فنلج إلى جوهره وفق بصيرة واضحة، فلا نقحمه في دائرة مغلقة تبتعد بنا عن فهمه الصّحيح.

أوّلا : " الإطار التّاريخي للشّعر الجزائري الحديث "

إنّ الجزائر الّتي عرفت فراغا فكريا وثقافيا وتواصليا في القرن التّاسع عشر، بعد أن وطئتها أقدام الاستدمار* حتّى كادت عناكب النّسيان تنسج خيوطها على تراثها الأدبيّ والعلميّ، استطاعت في بداية القرن

العشرين أن تنهض بفضل رجالها الأمجاد من سُبات عميق أوْشك أن يفتك بأصالتها وشخصيتها، ويمحوَها من وجه التّاريخ الحديث.

لقد أوقف الشّعراء الجزائريون، قبل الاستقلال (05جويلية1962م)، شعرهم على خدمة وطنهم والدّفاع عن مقوّماته والنّهوض به، بل وسخّروه للإصلاح والوحدة والنّضال والتّوجيه والتّعليم وتأصيل أركان المجتمع الجزائريّ، ودخلوا به المعترك السّياسي من أبوابه الواسعة؛ فأثبتوا بحقّ أنّ الشّعر سلاح لا يقلّ أهميّة عن سلاح كلّ من المربّي والصّحفي والخطيب والسّياسيّ. وهذا الطّرح يؤكّد على أنّ إطار الشّعر هو إطار تاريخي اجتماعي، ولا يمكن للشّعر أن ينفصل عن هذا الإطار حتّى لو ادّعى ذلك، وقد عرفت المسيرة الشّعرية الإنسانية بعض محاولات تمرّد الشّعر على التّاريخ وعلى المجتمع...، ولكنّها في الحقيقة لم تتعدّ كونها تنويعات وأصداء لفترات تاريخية واجتماعية[1]. ومن ثمّة فلا يمكن لنا أن نقرأ أيّ نصّ أدبيّ خارج حدود الزّمن باعتباره منتوج ظروف تاريخية وثقافية معيّنة، دون إلغاء بطبيعة الحال الزّمن الحدثي الّذي يتشكّل داخل القصيدة، و الّذي لا يكتسب قيمته إلاّ من خلالها.

01/ إدّعاءات فرنسا الاستيطانية ومحاولة طمس الشّخصية الجزائرية

برّرت فرنسا احتلالها للجزائر (في جويلية من عام 1830م) بدعوى نشر رسالة التحضّر فيها والإنسانية ، في حين حرصت على نشر الجهل

والفساد في ربوعها وسلب خيرات البلاد واستغلال شعبها، بل وعملت جاهدة على طمس معالم شخصية مفهوم الوطنية لدى الجزائريين، بالعمل على تشويه تاريخهم، ومحاربة دينهم، وقمع لغتهم، ومحاولة دمجهم.

وقد نجحت في ذلك إلى حدّ بعيد مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث أصبح أكثر الجزائريين (وأكثر البلاد العربية)، لا يعرفون عن الجزائر إلا القليل، وكأنها ليست بلدهم ولا بلد آبائهم، ومن ثَمَّ لم يعد يعنيهم ماضيها وحاضرها، ولا حتى مستقبلها[2].

إنّ الاستعمار الفرنسي (بمفهومه الجديد واحتلاله الشّرِس) بالجزائر، لم يقتصر على التّواجد العسكري فحسب، بل كان شاملا حيث شارك فيه بالإضافة إلى الجندي، كلّ من السّياسي ورجل الدّين والمؤرِّخ ورجل الأعمال والمفكّر والأديب والطّبيب...كلّ حسب مجاله وقدرته[3]، فتعرّضت الجزائر بذلك إلى تشويش في حضارتها وقيمها الدّنيوية والرّوحية.

لقد أدّى هذا الاضطهاد إلى انتكاسة فكرية شاملة، وإلى وضعية متردّية في المجالات الاجتماعية والثّقافية والسّياسية، ولقد وضعت فرنسا مخططا متكاملا لمحو مقومات الأمّة الجزائرية حتى تتمكّن فرنسا الاستعمارية من احتواء الجزائر نهائيا في كيانها[4]. والحقيقة أن الحملة الفرنسية –حسب بعض المحلّلين– كانت بدوافع وأغراض صليبية وتغريبية، واستهدفت كيان الجزائر وروحها، ولاشك في «أن الفرنسيّين جاءوا لغزو الجزائر مثلما انطلق الإنجليز والأسبان قبلهم لغزو أمريكا»[5]، لذا فهي من خلال شعاراتها المزيّفة،

كانت تحجب هدفا واحدا ووحيدا، وهو فرنسة الجزائريين وتنصيرهم أرضا وشعبا وثقافة. وقد بلغت الجزائر مع بداية القرن العشرين، منعرجا خطيرا في حياتها كاد يعصف بهويتها العربية الإسلامية، لولا ظهور بوادر إصلاحية استعادت بها النفوس الأمل، تمثّلت في إنشاء بعض المدارس الحرّة والمنتديات، وزيارة بعض الدعاة الإصلاحيين (وغيرهم) بعض المدن العربية الّتي كانت تزخر بالعلماء والمفكّرين وتتمتّع بقبس من العلم والمعرفة نتيجة إحيائها للتّراث العربي الإسلامي واحتكاكها بالغرب وما وصل إليه من تقدّم في شتّى المجالات (معرفية ومادية)، وعودة مجموعة من الوطنيين المخلصين من البلاد العربية إلى الجزائر، وتآلفها تحت لواء العلم والدين، والتفاف عدد من المثقفين والمفكرين حولها، فتشكّلت بذلك النّواة الحقيقة الأولى للنهضة الوطنية. والمقصود بمصطلح "النهضة " – في هذا المقام– إلى الحالة الواعية التي آل إليها أمر النخبة من الشعب الجزائري انطلاقا من نهاية الحرب العالمية الأولى خصوصا.

فهذه النهضة، أي هذا النهوض المعنوي والوعي بالوجود للشعب الجزائري لم يكن موجودا في عهد الاستعمار الأول"[6].

إنّ الوعْي التّاريخي لدى أمّة، ووقْعِه النّفسي والرّوحي يكاد يساوي ثورة عسكرية بأكملها ضدّ عدُوِّها، فقد تُقمع الثورة العسكرية، أمّا الأفكار فتبقى حية مدى الدّهر[7]. ومن هذا المنطلق بدأ رجالُ الفكر والمصلحون في السّعي لانتشال الشعب من حالة الضّياع التي تاه فيها، وربطه بجذوره من جديد، والتصدّي لمناورات العدوّ، بالتأكيد على أن الجزائر ليست

جزءا من فرنسا، ولا امتدادا للرومان، بل هي أمّة قائمة بذاتها، ويشهد على ذلك تاريخها المجيد. ولقد ابتليت باستعمار شرس كما ابتليت أمم أخرى. والأمّة الحقّ، كما يشير إلى ذلك عبد المالك مرتاض، هي التي إذا أصابتها مهانة ثبتت، وإذا اكتسبها عزّة تواضعت[8].

/ التّفعيل الإيجابي للنّشاط السّياسي وميلاد الحركة الوطنية 02

يمثّل القرن العشرين محطّة بارزة في تاريخ الجزائر الحديث، حيث عرف الشّعب صحوة سياسية متميِّزة، غيّرت مجرى تاريخها، وتبدّلت النّظرة التّشاؤمية الّتي كان يكابدها الجزائريون إلى استقراء للواقع، وتحوّلت حالة الانتكاسة والتّذمر إلى أرضية صلبة تؤكّد أحقّية الشّعب الجزائري في العيش الكريم والحياة الحرّة؛ فترجم ذلك بازدياد نشاط حثيث تمثّل في بروز تنظيمات اجتماعية وثقافية وبروز عدد من الصّحف* تتناول شتّى المجالات وظهور حركات سياسية عزمت على السّير بأمّتها إلى التّحرر والمُضي بها إلى مصاف الأمم المتحضِّرة.

أخذت هذه النهضة تتّسع بفعل المناخ المترتّب عن نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث ازداد انفتاح الجزائر على العالم الخارجي عبر روافد وقنوات مختلفة مثل الصحافة والحجاج والجنود والمهاجرين. فتزايد الحسّ الوطني، ونما معه الوعي السياسي، وبرزت عندئذ إرادة مواجهة الاحتلال لافتكاك الحقوق المسلوبة. ممّا أشعل فتيل الصراع بين الفكر الوطني الملتزم القائم على العروبة والإسلام، و بين المستعمر والفكر المُوالي له[9]. وقد

ساعدت عدّة عوامل داخلية وخارجية على تحوّل الجزائريين من المقاومة المسلّحة إلى النّضال السياسي؛ منها على وجه الخصوص التّوجّهات التّحرّرية والآراء الإصلاحية في المشرق العربي، وأيضا احتكاك المثقفين الجزائريين بالعالَم، نتج عنه التّشبّع بالشّعارات التي كانت سائدة آنذاك مثل؛ مبدأ تقرير المصير، وتحرير الشعوب*.كما أن الجزائريين أدركوا أهمية استعمال الوسائل العصرية في نشر التّوعية، وفي إبلاغ المعلومة للرّأي الآخر سواء داخل الوطن أو خارجه، فالتجأوا إلى الصحافة لتحقيق ذلك[10]، برغم أنّها ثمرة الاستعمار، لكنّهم أحسنوا استغلالها واعتبروها شِرعة في تحقيق غاياتهم وبلوغ أهدافهم. وهكذا عرفت الجزائر، بعد الحرب العالمية الأولى، حركة سياسية نشيطة تمحورت في ثلاثة تيارات: **تيار استقلالي** يعتمد على مبدأ المواجهة مع العدو، و**تيار إصلاحي** يتبنى مبدأ التّغيير التّدريجي مع تجنّب التّصادُم مع العدوّ، و**تيار يدعو إلى المساواة** بين الجزائريين وبين المستوطنين من فرنسيين وغيرهم.

ويرى الكثير من المؤرِّخين الجزائريين (وغيرهم) أنّ سنة **1919**م، تعتبر "كبداية لنشأة الحركة السياسية في الجزائر، أخذًا بعين الاعتبار لنشاط الأمير خالد الذي يروْن فيه تعبيرا أوّليًا عن الوطنية الجزائرية»[11]. وخلافا لما كان عليه أب الأمير (الّذي كان مُواليا لفرنسا وخادما أمينا لمصالحها ومفتخرا على أنّه من رعاياها المخلصين)، فإنّ الأمير خالد لم يشاطر أباه هذا الاعتقاد، ويصرّح بأنّه عربيّ ويريد أن يبقى كذلك ولا يعمل إلاّ بما يؤمن به من آراء.

نتيجة لهذا الموقف الرّافض لتوجّهات أبيه، واحتقاره لفرنسا الاستعمارية، عدّه بعض المؤرّخين أوّل من برز في ميدان الوطنية الجزائرية[12].

برز الأمير خالد ضمن "حركة الشّبان الجزائرية" الّتي كانت تتشكّل من نخبة من الجزائريين المُكوَّنين في المدارس الفرنسية ، والمتشبِّعين بالثقافة الغربية، هذه الحركة طالبت بالمساواة السياسية مع الفرنسيين، وإلغاء قانون الاندجينا، فرفض طلبها، فتسبّب ذلك في انقسامها سنة 1919م إلى اتّجاهين متعاكسين، تزعَّم أحدهما الأمير خالد، وهو الاتّجاه المنادي بحقّ المواطنة والتّمثيل في البرلمان، مع الإبقاء على الأحوال الشّخصية الإسلامية. وفي هذه السنة طالب الأمير خالد، أثناء عَقْد مؤتمر فرساي، بتطبيق مبدأ تقرير المصير على الجزائريين، وأسّس في جانفي 1922م حزب «الإخاء الجزائري» إدراكا منه بضرورة تنظيم الشّعب و توحيده، وراح يطالب بنشر العلم، وإلغاء كل القوانين الاستثنائية، واستفادة الأهالي من الأراضي، وحقّ تمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي، ورفْع نسبة مشاركتهم في المجالس المنتخبة المحليّة، ثم استكمل برنامجه، في مرحلة ثانية، بحرية الصحافة وفصل الدّين عن الدولة[13].

حظِيَ الأمير خالد باحترام كبير، وشعبية جمّة، فتعاطف معه الجمهور وأخذ يؤيّده ويحضُر اجتماعاته ويتتبع كتاباته[14]، لأنّه كان يمثّل الشّخصية الإسلامية الجزائرية ذات الأبعاد الوطنية الّتي ترفض الاندماج. وقد أحرزت حركته انتصارا مُحقَّقا على السّاحة الانتخابية فبادرت السّلطات الاستعمارية بنفيه إلى فرنسا سنة 1923م، غير أنّه لم يتوقف عن نشاطه

السياسي، بل استمرّ في دعوته بالنّدوات والمحاضرات والمكاتبات[15]، ويعدّ برنامجه ونشاطه السّياسي ما بين 1919م و1925م مرجعا أساسيا للحركة الوطنية الجزائرية وتطوّرها، الّتي ظهرت فيما بعد.

مع بداية العشرينيات عمل الحزب الشيوعي على إسناد المسؤولية فيه إلى إطارات جزائرية. فكان هذا سببا قويا ومباشرا في إنشاء «الفدرالية الشيوعية الجزائرية» عام1924م، غير أنّها بقيت خاضعة لهيمنة الشيوعية العالمية، ولم يظهر «الحزب الشيوعي الجزائري» كحزب مستقل إلّا عام 1935م[16]، ورغم هذا بقي نشاطه محدودا ولم يلق الدّعم من المواطنين، لأنّ مذهب الشيوعية مقترن لدى أغلبية المسلمين، بالكفر والإلحاد[17]. وفي مارس 1926م، تمّ الإعلان عن تأسيس جمعية «نجم شمال إفريقيا»، و قد عرفت تحوّلا أساسيا في فيفري 1927م حين حدّد رئيسها مصالي الحاج، في مؤتمر بروكسل، مطالبه الجوهرية المتمثلة في استقلال الجزائر، وإنشاء برلمان جزائري، و مجالس بلدية منتخبة، ومن ثمَّ " فإن الاستقلال الذي كان خياليا و أصبح اليوم حقيقة، قد خُطّط له في هذا التاريخ ، والذي يعتبر بحقّ الانطلاقة الحقيقة للنّجم"[18].

لكن سرعان ما اصطدم النّجم بالتعنّت الفرنسي، فتمّ حلّه في نوفمبر 1929م، ثم أعيد تشكيله في ماي 1933م تحت اسم «**نجم شمال إفريقيا المجيد**» فأصبح حزبا جزائريا، و دعّم برنامجه بمبادئ أخرى أهمّها: **اعتماد اللغة العربية لغة رسمية**، و تكوين جيش وطني و حكومة وطنية، وترسيخ ممتلكات الدولة، وإعادة توزيع الأراضي على الفلاحين. وبعد

عام نقل نشاطه إلى الجزائر، وبدأت أفكاره تنتشر داخل الأوساط الشعبية[19]، ثم دخل في صراعات مع الأحزاب الأخرى في كيفية تحقيق الاستقلال، الأمر الذي انتهى بحلّه في جانفي 1937م. أمّا جمعية العلماء المسلمين التي تأسّست في يوم الخميس من ماي 1931م بنادي التّرقّي (الجزائر العاصمة)، فيرجع السبب المباشر لقيامها إلى الاحتفال الضّخم الذي هيأته فرنسا بمناسبة مرور قرن على استعمارها للجزائر، وما صاحبه من مظاهر الإهانة لمقومات الشخصية الوطنية، ومع ذلك فإنّ فكرة إنشائها تعود إلى عقد العشرينيات حيث كانت تنشط بغير اعتماد[19].

لقد حدّدت الجمعية برآسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس أهدافها والمتمثّلة في إحياء الدّين، وتطهيره من البدع و الشّوائب، ومحاربة الطُّرقية، والتّصدي للتّبشير والتّجنّس والإدماج، وإعادة الاعتبار للّغة العربية، كما أنّها سعت لكسب الجماهير عن طريق الدّعوة إلى مبادئ الإسلام السّمحة متّخذة شعار "**الإسلام ديني، والعربية لغتي والجزائر وطني** "، وأدخلت البعد القومي في عملها السياسي فزادته مَتانة، ثمّ عبّرت عن رأيها في استقلال الجزائر التّام، حيث كان رئيسها سيعلن الثورة على فرنسا لو لم توافه المنية[20].

عمّت أفكار الجمعية الوطن، و شملت أغلبية القطاعات عن طريق المدارس والنوادي والجمعيات والصحف التي أنشأتها، ويعدّ عبد الحميد ابن باديس بحقّ القطب الرئيس في حركة النهضة الجزائرية بكل أشكالها. وهو –بلا منازع– أشهر شخصية جزائرية في النصف الأول من القرن العشرين، فلقد كان مصلحا وسياسيا وزعيما ومفكّرا وعالما وخطيبا،

فنال بذلك مكانة متميّزة في تاريخ الجزائر المعاصر[21]. وتأسّس حزب «**الشعب الجزائري** »في 11 مارس 1937م، خلفا لنجم الشمال، وجعل من مهامه تحرير الجزائر وتحقيق الوحدة المغاربية، رافضا كلّ وسيلة تغريبية أو استئصالية[22]، وحرص على أن يكون المعبِّر عن إرادة الشعب بمختلف فئاته؛ فنتج عن ذلك تغيُّر في بنيته التّركيبية، و تنوّع في خلفيته الفكرية[23]، لكنّ السلطة الحاكمة بادرت إلى حلّ الحزب بصفة نهائية في 26سبتمبر1939م، بعد سجن زعيمه، لكنّه واصل نشاطه بصفة سريّة بعد ذلك.

لم تتوقف الحركة السياسية خلال الحرب العالمية الثانية، و يعتبر **فرحات عباس** أهمّ رجل وطنيّ نشط خلال تلك الفترة و تكلّلت مجهوداته في مارس 1943م بتحرير «**بيان الشعب الجزائري** » الشهير بعد استشارة أغلب الفعّاليات الوطنية.

غير أنّ فرنسا ردّت على ذلك بإجراءات قمعية عنيفة، واستحدثت مُخطَّطًا بديلا ووعدت الجزائريين من خلاله بمبدأ المساواة بين المسلمين والأوروبيين[24]. وكان هذا سببا كافيا لإنشاء جمعية «**أحباب البيان والحرية** » في 14 مارس 1944م.

بلغ الوعي السياسي أشدّه لدَى الجزائريين مع نهاية الحرب العالمية الثانية، فعملوا على فرْض وجودهم كأمّة ساعية إلى التّحرر، في حين حاولت فرنسا الظهور بمظهر المنتصِر، وإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه من قبل.

تعدّ **أحداث 8 ماي 1945م**، الشّرارة التي أضاءت طريق الكفاح المسلّح، وقطعت الطريق على أصناف الحلول[25]، بل وعدّها بعض المؤرّخين الشّعلة الحقيقية لثورة فاتح نوفمبر[26]. ويتضّح من تحليلها أنّها جاءت كنتيجة حتمية لتسلسل تاريخي فرضته أحداث أليمة، و طبعته ظروف قاسية، «وإن أهمّ نتيجة يمكن استخلاصها هي أنّ النشاط السياسي للحركة تغلغل بنجاح في الأوساط الريفية»[27]، و«هذه الأحداث هي أوّل اختبار حقيقي للحركة، حيث أصبح لزاما على تشكيلاتها تحديد مبدأ تعاملها مع العدوّ وفق أحد الخيارين: إمّا المهادنة، وإمّا الكفاح»[28].

إنّ مذابح 8 ماي بشراستها ووحشيتها وهمجيتها، والّتي كشف فيها المستعمِر الخادِع عن أقنعته الحقيقية (بعدما حجبها عن الشّعب الجزائري بوُعودِه الكاذبة يوم انكساره وتخاذله أمام الألمان)، لم تؤدّ إلى القضاء على الرّوح الوطنية كما توقّع ، بل على العكس من ذلك تركت بصمات سلبية في ذهن الشّعب الجزائري وأبقته مجنّدا لتحقيق أهدافه، وتجلى ذلك في مقاطعة الانتخابات المنظّمة في جويلية **1945**م؛ ونتيجة لهذا قامت السّلطات الفرنسية بحلّ كلّ الأحزاب واعتقال رؤسائها و مناضليها.«بكل تأكيد: حرْب الجزائر اندلعت في **8** ماي **1945**م»[29]. و«السنوات اللاحقة هي الأكثر كثافة في سجّل الحركة الوطنية الجزائرية بنصوصها وأعمالها وتعثّراتها، وهي تندرج ضمن حركية تحقيق الوحدة الوطنية»[30].

في هذا الإطار، تشكّل سنة **1946**م حِزْبَا «**الاتّحاد الديمقراطي للبيان الجزائري**» بزعامة فرحات عباس و «**حركة الانتصار للحريات**

الديمقراطية» بزعامة مصالي الحاج؛ وهما يلتقيان في مبدأ المحافظة على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها، و يختلفان في وسيلة العمل؛ فالاتّحاد يطالب بتكوين جمهورية تتمتّع بالحكم الذّاتي، وتسير نحو الاستقلال على مراحل، أمّا الحركة فتُطالب بالاستقلال التّام و تكوين جمهورية لها كيانها الكامل[31]. واقتربت جمعية العلماء بشكل واضح من البيان انطلاقا من هذا التّاريخ، لكنّ عاصفة الانقسامات الّتي اهتزت لها الأحزاب والجمعيات الوطنية وانتهت بتفتيتها، أدّى إلى عمل عكسي إيجابي تُرْجِم في نشوء ميلاد جبهة التّحرير الوطني[32].

لقد أثبت الشّعب الجزائري بفضل تكامله وتلاحمه عن وعيه النّاضج، وأبان عن روحه التّحريرية العالية، برهن عليها في غُرّة نوفمبر 1954م، حيث وَثَبَ وقْفَةَ رجلٍ واحد ضدّ الدّخيل الغريب الظّالم المستبدّ، دفاعا عن الأرض والميراث وطلبا للحرّية والكرامة.

وفي فترة قصيرة جدّا قياسا بعُمرِ الاحتلال، أثبت الشّعب الجزائري للعالم كلّه أنّ ظلام اللّيل مهما طال، لا بدّ أن ينقشع بفجر منير، فتكلّلت التّضحيات الجِسام بنصر مُبين بإرغام الفرنسيين على المُفاوضات (عُرفت بمفاوضات إِفْيان)، وتمّ الاستقلال المُستحقّ في 05جويلية1962م.

03/ أثر الخيار الثّقافي في التّواصل والوحدة

إتّسمت الحياة الثقافية في ظلّ الحركة الوطنية بروح المقاومة منذ بداية العقدين الأوّلين من القرن العشرين، وكانت في انطلاقتها متأثّرة بنظيرتها من المشرق العربي[33]، وذلك من خلال الدّوْريات التي كانت تصل إلى الجزائر.

لقد أسّس عبد الحميد بن باديس ورفقاؤه صحفا عديدة كانت مدرسة كبرى للوطنية، و مصلحا عظيما للمجتمع، ومثقفا ضليعا للشّعب، ومنْبرًا صادقا للخطباء[34]؛ ومن أهمّ هذه الصحف، و أكبرهنّ شأنا، وأطولهن عمرا : الشهاب والبصائر , و كان أشهر كتّابهما ابن باديس، البشير الإبراهيمي، محمد العيد آل خليفة، محمد الهادي السنوسي، أحمد سحنون، السعيد الزاهري، أبو اليقظان، مبارك الميلي، العقبي الطيبي، أحمد توفيق المدني، والعربي التبسي[35]. وكان لهذه الصحافة مواقف حاسمة في أحداث عديدة على الرّغم من القيود التي فرضت عليها، وساهمت في التّطور الاجتماعي من خلال تثقيف الجزائريين، بل وكانت لسان حال معظم الشّعراء الجزائريين الّذين حملوا على عاتقهم الهمّ الشّعبي والقضية الوطنية رغم التّضييق الّذي مُورس عليهم بمختلف أشكاله، يقول شاعر الثّورة الجزائرية في نشيد "فداء الجزائر" (عام 1936م):

خُلقْنا بحُكْم الهوى * فتبّتْ يَداَ كُلّ مَن فرّقا
نُريد حياةً لنا حرّة * كَفانا كَفى مِن حياةِ الشّقا
بِلادي يَميناً مُقدّسة * سنرْعَى عَهْدَكَ طُول الْبَقا[36]

عملت الجمعية على نشر التّعليم بإنشاء مدارس حرة عربية و«كانت في ذلك أشبه ما تكون بوزارة تربية شعبية لها ميزانيتها وإدارتها الخاصة»[37]. في حين بقي التعليم في المدارس الفرنسية حِكرا على طبقة محدودة، ولم ينجح في

فرنسة الجزائريين لأنّ الأمّة الجزائرية كانت عريقة في عروبتها, أصلية في تاريخها, شديدة التمسك بوطنيتها[38]، وموازاة مع هذا، تدعّم التعليم الخاص في الزوايا، فساهم في حفظ القرآن من النسيان، وترسيخ علوم الفقه و الدين، كما انتشرت النوادي الثقافية والجمعيات الأدبية بكثرة بحيث لا يمكن الإلمام بها[39]. وفيها كانت تقدم العُروض المختلفة، وتُقام الخُطب، وتُناقش السياسة. ومن هذه النوادي: النّهضة، التّرقي والإرشاد، ومن هذه الجمعيات: إخوان الأدب، محبّو الفن وجمعية المزهر[40]، بالإضافة إلى هذا، تأسّست أنشطة، عملت على تطوير اللّغة العربية وجعلها في أولياتهم الأولى؛ ففي القضاء عليها، قتل لهوية الأمّة وانتمائها وحضارتها ودينها وشخصيتها وطمس لماضيها المجيد وحبْسٌ لحاضرها ومحْوٌ لمستقبلها.

يقول الشّاعر أحمد سحنون وهو يُشيد بالمدافعين عن العربية:

وأذْكُرُ جُهودَ حُماةِ الضّادِ إنّهُمْ * صانُوا حِماهَ وذَادُوا عنْ مباديها[41]

كما ظهر المسرح باللّغة الفصحى و باللّهجة الدّارجة، وقُدِّمت فيه قصص عالمية وتمثيليات اجتماعية، كما عرضت فيه موضوعات شعبية، كان القصد منها التّنبيه إلى العيوب المتفشّية في المجتمع من جرّاء الاستعمار[42].

بل إنّ المسرح الجزائري وعلى الرّغم من ضعفه من حيث الأداء والابتكار في الموضوعات (إذا استثنينا من هذا التّعميم بعض المحاولات، كبلال لمحمد العيد وحنبعل لأحمد توفيق المدني...)؛ فإنّ بعض الأقلام الوطنية دعت إلى النّهوض به والعمل على التّاليف فيه، لخطورته؛ لأنّه يمثّل علاقة صريحة بين المُمثّل والمتفرّج دون وسيط، ممّا يضمن مرور الرّسالة مباشرة وفي غير تشويش[43]. وقد عرف هذا النشاط المتنوّع تطوّراً هائلا في ميدان الأدب بكل أصنافه، وبصفة خاصّة في ميدان الشّعر؛ حيث اندمج الشعر في الحركة السياسية والثّقافية منذ انطلاقها، وواكب تحوّلاتها طَوال مسيرتها. و يتجلّى ذلك في تخلّي الشعر-مع بداية الثّلاثينيات- عن الطابع الدّيني الّذي كان عليه من قبل، وأصبحت رسالته تحسيسية أكثر فأكثر، وخطابه صار مباشرا وصريحا، مدعّما في ذلك بجمعية العلماء التي انضوى تحت لوائها جلّ الشعراء. وهكذا دخل الشّعراء معترك الحياة السياسية من بابه الواسع. فأوقفوا شعرهم على الجزائر والدّفاع عن مقوماتها، و النّهوض بها، وتحقيق وحدتها. وراحوا يناضلون عنها بكل حماسة في صراعها ضدّ المستعمرين؛ فكانوا بذلك اللسّان المعبّر عن أصالة الجزائر وروحها العربية الإسلامية، والمرآة التي عكست بأمانة أحوال الشعب وهمومه وآماله وتطلّعاته، وقد كانوا يعتمدون في نظم قصائدهم على حسّهم الوطني و دافعهم الديني، فجاءت تلك القصائد صادقة عفوية لا تكلّف فيها و لا تصنّع، ومكّنتهم من محاربة الجهل والفساد والتأخّر، والدّعوة إلى الاتّحاد واليقظة والنّضال والجهاد، فكانوا بذلك رجال إصلاح و سياسة، وإن لم ترق أعمالهم الشّعرية إلى

مصاف الأعمال الرّاقية والعالمية*، بحكم السّير على الطّريقة الاتّباعية في النّظم. و«لولا إيمان الأمّة الجزائرية بعدالة السّماء، وقوّة عزمها على مقارعة الخطوب، وصلابة إرادتها في مقاومة المعتدين، وشدّة تعلّقها بتاريخها العريق والأصيل، لعصفت بها صروف الدّهر التي تكالبت عليها طَوال تاريخها شرّ عصف، ولم يكن منتظرا في وطن تنعدم فيه أبسط الحقوق المدنية و الحريّات الشّخصية أن يظهر فيه إبداع جميل ولا أدب عظيم»[44]. ومن الطبيعي أن هذه الحركة الثقافية ماكان لها أن تتدعّم وتستمر لولا يقظة الشعب، وحرصه على التّمسك بهويته وأصالته[45].

"ثانيا : " البعد التّأويلي للشّعر الجزائري الحديث

للخروج بتصوّر بياني عن موقع الشّعر في هذه الفترة 1919م/ 1962م، نعتمد على الزّمن كعامل محوري متغيّر ضمن أبعاده الثّلاثة النّسبية، حيث يمثّل هذا الشّعر الحيّز الفاصل بين مراحل ثلاثة :

01- مرحلة الماضي (ماقبل 1919م)، بكل ما تحمله من تعاسة وكآبة وبكائية، والّتي تنتهي عند نقطة التحوّل الذي حدث، وتمتدّ هذه الفترة تنازليا من (أ) نحو (ب).

02- مرحلة الحاضر (1919م/ 1962م) بكلّ ما تمثّله من استفاقة وصحوة وحركية وثورة واستقلال، وهي تمتدّ أفقيا من (ب) في اتّجاه (ج).

03- مرحلة المستقبل (مابعد 1962م)، الّتي تبقى نقطة مجهولة(د)، غير أنّها محسوسة، بكل ما تعبّر عنه من آمال، وهي تتأرجح بين محورين، ملتفة حول نفسها عند الصفر (المبدأ).

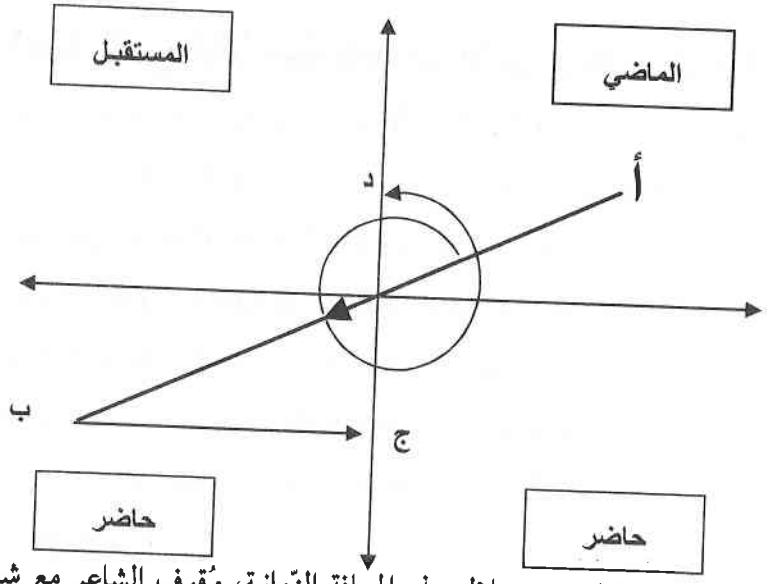

ونستشف من خلال هذه المسافة الزّمانية، وُقوف الشاعر مع شعبه في محطّة الحاضر، وهم يرنون إلى ما بعد الآتي و ليد التقاء الماضي المجيد بالمستقبل الحميد. إن قطار الزمان، ولو كان متخلّفا في الحاضر، إلاّ أن عيون الشعب في انتظار الصباح المنير، وعلى الرّغم من سحابة الحزن الممزوجة بالقلق، و الّتي تخيّم في آفاق عالم مجهول، فإن الشّاعر متفائل، وهو مدرك بحدسه أنّ مهمّته "هي تحويل الموت إلى حياة واستبدال الصّحوة بالغفوة، وذلك بخلق حالة من العلاقة التّواصلية تقود السّفينة في حركة أفقية نحو الأفق الواسع والسّواحل المضيئة بدلا من حركتها العمودية"[46] نحو الرّؤى المظلمة.

إنّ الحياة بكلّ ما تحمله من معاني الاستمرار كالنّهر الخالد في منبعه ومصبّه، نتّخذ من ماضيها عِبْرة ومن حاضرها وقْفَة ومن مستقبلها تطلُّعًا. يقول محمّد العيد:

وَشهادَةُ التّاريخِ أوْثَقُ حجّةٍ ** تجْلُو الأُمور وتكْشِفُ الأحْوال[47]

ولعلّ ما جاء في هذا البحث، ما هو إلاّ وقفة استرجاعية وقراءة موجزة من بين القراءات الأخراة، لفترة زمنية حسّاسة من حياة الأمّة الجزائرية، تساعد المتلقّي على معرفة الأحداث التّاريخية والتّحوّلات الاجتماعية والملاباسات السّياسية والظّروف الثّقافية الّتي عايشها الشّاعر الجزائري، فكانت أرضيته في نظم قصائده، وهذا الّذي ربّما، قد يشفع لإبداعه في عدم السّير على خُطى التّجديد وتقديسه للطريقة الاتّباعية المحافظة، بكلّ ما تحمله من معيارية، لكنّها تعبير صادق عن التجربة الذّاتية والجماعية. وكأنّ الشّاعر الجزائري أراد استرجاع تلك الأولوية الّتي كان يتمتّع بها الشّاعر الجاهلي، من خلال تمجيد قومه والدّفاع عنهم والسّعي لاستمرار تاريخهم والحفاظ على وجودهم.

الهوامش:

*مصطلح وظّفه المفكّر الجزائري نايت مولود بلقاسم ويريد به المستعمِر الفرنسي في الحقبة الزّمنية (1830م-1962م).

1. يُنظر، الظاهرة الشّعرية العربية، حسين خمري، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، س2001م، ص83.
2. يُنظر، الشعر الجزائري الحديث، صالح خرفي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 99 .
3. يُنظر، المصادر، مجلّة سداسية محكّمة يصدرها المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954م، ع/ 14، السنة الثانية، 2006م.
يُنظر، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، رابح تركي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981،
4. ص100.

5. L'express – International, Spécial France Algérie, n° **2645** ,Mars, **2002** .

يُنظر، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، عبد الملك مرتاض، دار هومة، س2003، ص 49.

6. يُنظر، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ش.و.ن.ت ،الجزائر، س1983م، ص189.

7. المرجع السابق ، ص189.

*إنقسمت الصّحافة بالجزائر حسب توجّهها الحزبي ابتداءً من 1945م حتّى 1954م إلى: -1/ الصّحافة الوطنية الاستقلالية (بزعامة مصالي الحاج) -2/ الصّحافة الوطنية الاجتماعية (بزعامة فرحات عبّاس) -3/ الصّحافة الوطنية الإصلاحية (بزعامة ابن باديس) -4/ الصّحافة الوطنية العالمية (ولم تحظ بتعاطف الجزائريين لتركيبتها البشرية وتبعيتها لفرنسا وقناعتها بفكرة الجزائر فرنسية، حتّى وإن كانت تردّد مقولة الاستقلال وتدعو إلى المساواة) = راجع مقال الصّحافة الوطنية من ص47 إلى ص59، مجلّة المصادر، ع14، س2، 2006م.

8. يُنظر، في الأدب الجزائري الحديث، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، س1995م، ص60.

* للمزيد راجع مبادئ عصبة الأمم المتحدة – ما قبل الحرب العالمية الثانية أولا، ثم ميثاق هيئة الأمم المتحدة ثانيا.

9. يُنظر، مظاهر المقاومة الجزائرية، محمد الطيب العلوي ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ص 76.

10. التعددية الحزبية في تجربة الحركة الوطنية، الأمين شريط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998م، ص2 .

11. Revue de l'occident musulman, n° **02**, 2eme semestre, **1966**, p/**949**, (Agéron

12. المرجع السابق، ص 68.

13. يُنظر، محمد الطيب العلوي، المرجع المذكور سابقا، ص 56

14. le mouvement national Algérien, Colot et Henry, O.P.U, Alger + Harmattan, Paris, **1981**, page / **30**.

15. يُنظر، جمعية العلماء المسلمين، أحمد الخطيب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 45.

16. يُنظر، المختصر في تاريخ الجزائر، صالح فركوس، دار العلوم والنشر والتوزيع، الجزائر،2002م، ص.232.

17. المسيرة الوطنية و أحداث 8 ماي، محمد قنانش، منشورات دحلب، الجزائر،1981م، ص32.

18. يُنظر، الحركة الوطنية في الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ج03، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص413.

19. يُنظر، المصادر(مجلّة سداسية محكّمة يصدرها المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر 1954م)، ع/ 12، س2005م، ص115.

20. المرجع السابق ، ص 87 و ما بعدها.

21. يُنظر، عبد الملك مرتاض، المرجع المذكور سابقا، ص 61.

22. يُنظر، صالح فركوس، المرجع المذكور سابقا، ص 240 .

23. يُنظر، الأمين شريط، المرجع المذكور سابقا، ص 16..

24. يُنظر، أبو القاسم سعد الله، المرجع المذكور سابقا، ص 267.

25. يُنظر، ثورات الجزائر في القرنين 19م و 20م، يحي بوعزيز، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1980م، ص 293.

26. للمزيد يُنظر ,Les Origines du 1er Novembre **1954**, Benyoucef Benkhedda Editions, Dahleb, **1989**

27. L'Algérie en guerre, Mohamed Teguia, S.N.E.D, Algérie, p/**106**.

28. 8 mai **1945**, Radouane Ainad Tabet , E.N.A.L, Alger, **1985**, p**136**

29. L'Express – International, op . cit

30. . Collot et Henry , op . cit p**148**

31. يُنظر، تركي رابح ، المرجع المذكور سابقا، ص، 70.

32. يُنظر، الأمين شريط ،المرجع المذكور سابقا ،ص 74.

33. يُنظر، أدب النضال في الجزائر، أنيسة بركات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، س1984، ص 75.

34. يُنظر، تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، س1981م، ص 432.

35. يُنظر، عبد الملك مرتاض ، المرجع المذكور سابقا، ص 23.
36. اللّهب المقدّس، ديوان، مفدي زكريا، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط03، س1983م.
37. أنيسة بركات ، المرجع المذكور سابقا، ص 53.
38. يُنظر، عبد الملك مرتاض ، المرجع المذكور سابقا ، ص 3.
39. المرجع السابق، ص 37.
40. يُنظر، أبو قاسم سعد الله، المرجع المذكور سابقا، ص127.
41. البصائر، أكتوبر، عدد 10، سنة 1947م.
42. يُنظر، فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1983م، ص205.
43. يُنظر، جريدة المنار، ع/ 11، السّنة الأولى، ربيع الأوّل 1371ه/ ديسمبر 1951م، ص 04.

* هذا إذا استثنينا بعض الأعمال الشّعرية الّتي استطاعت أن تحلّق في سماء الإبداع والجمال والفنّ كقصيدة أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، الّتي نظمها في عام 1937م ونشرها في جريدة الشّهاب، على سبيل المثال لا الحصر، ولقد خصّها عبد الملك مرتاض -على الرّغم من قصرها- بدراسة وافية مطبّقا جملة من الأدوات الإجرائية الحداثية.

44. أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، عبد الملك مرتاض ، المرجع المذكور سابقا، ص 43.
45. يُنظر، نهضة الادب العربي المعاصر في الشعر الجزائري، عبد الملك مرتاض، المرجع المذكور سابقا، ص 33.
46. فلسفة الإيقاع في الشّعر العربيّ، علوي الهاشمي، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط01، س 2006م، ص93. الدّيوان، محمّد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط03، س1992م.